المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية – جامعـة سيدي بلـعباس
ISNN : 2170-0060 EISSN : 2602-523X
المجلـد 14 -- العدد 01 -- جويلية 2022 ص 162 - 181

اهتمامات أمحمد بن رحال بقضايا الجزائريين مسألة التجنيد الاجباري انموذجا

M'hamed Bin Rahal's concerns on the problems of the Algerians The issue of conscription example

بلجة عبد القادر – أستاذ محاضر أ	دكتوراه في العلوم تاريخ	جماعة جيلالي ليابس سيدي
Beldjaabdelkader68@gmail.com	حديث ومعاصر	بلعباس/الجزائر

DOI :

الإرسال: 2022/03/22 **القبول**: 2022/05/08 **النشر**: 2022/07/01

ملخص:

عملت السلطات الاستعمارية على تحطيم البنية التحتية للمجتمع الجزائري، مما ولد ردود فعل تمثلت في المقاومات الشعبية، وبفشلها في تحقيق هدفها وجد المجتمع الجزائري نفسه أمام تحدي المحافظة على مقومات الشخصية والوطنية، مما أدى الى بروز مبادرات منظمة بدرجات متفاوتة حملت معها الإشارات الأولى للتعبير السياسي والثقافي ذي النزعة المطلبية مع مطلع القرن العشرين بقيادة نخبة جزائرية مثقفة اهتمت بقضايا الجزائريين حيث قامت بإيصال مطالبهم الى إدارة الاحتلال، ومن بين هذه الشخصيات نذكر سي أمحمد بن رحال الندرومي (1858- 1928) الذي رافع طيلة فترة نضاله من أجل اصلاح أوضاع الجزائريين خاصة في مجال التعليم، محاربة الادماج والتجنيد الاجباري في الجيش الفرنسي.، ومن هنا يمكننا ان نطرح التساؤلات التالية : كيف أثرت الظروف السائدة في الجزائر عامة ومنطقة ندرومة خاصة خلال النصف الثاني في بناء شخصية أمحمد بن رحال؟ وفيما تجلت مظاهر أسلوب المقاومة عن طريق الحوار التي تبناها سي أحمد بن رحال؟

كلمات مفتاحية: أمحمد بن رحال؛ ندرومة؛ إدارة الاحتلال؛ الادماج؛ التجنيد الاجباري.

Abstract:

The colonial authorities worked to destroy the infrastructure of the Algerian society, which generated reactions represented in the popular resistance, and by failing to achieve its goal, the Algerian society found itself facing the challenge of preserving the elements of personality and patriotism, which led to the emergence of organized initiatives of varying degrees that carried with them the first signs of political and cultural expression.

With a demanding tendency at the beginning of the twentieth 20th century led by an educated Algerian elite that took an interest in the issues of the Algerians, as it conveyed their demands to the occupation administration .Among these personalities, we mention Si M'hamed bin Rahal Al-Nadroumi (1928-1858), who throughout his struggle to reform the conditions of Algerians, especially in the field

of education, advocated the fight against integration and forced conscription in the French army. Hence, we can ask the following questions :how did the circumstances affect the situation prevalent in Algeria in general and the Nedroma region in particular during the second half in building the personality of M'hamed bin Rahal? And while the manifestations of the resistance method were manifested through dialogue adopted by Si Ahmed bin Rahal?

Keywords: Ahmed ben Rahal; Nedroma; colonial administration; inclusion; military conscription.

مقدمة:

تميز الاستعمار الفرنسي للجزائر منذ البداية بالقسوة والشراسة في جميع ميادين الحياة، وكان من أهدافه الكبرى ضرب البنية التحتية للمجتمع الجزائري للقضاء بصفة نهائية على الشخصية الوطنية الجزائرية، مما دفع بالشعب الجزائري الى الدفاع عن نفسه لرفع التحدي المفروض عليه، فلم يكن أمامه سوى المقاومة التي اتخذت في بدايتها طابع الجهاد الذي يعد في عقيدة الجزائريين واجبا شرعيا.

وعلى الرغم من أن المقاومات الشعبية باستمراريتها وانتشارها كان لها دور كبير في المحافظة على الروح الوطنية، والاندفاع الثوري، إلا أنها لم تحقق هدفها والمتمثل في إيقاف الاحتلال والقضاء عليه، لكن ذلك لم يمنع ظهور مبادرات منظمة بدرجات متفاوتة حملت معها الإشارات الأولى للتعبير السياسي والثقافي، ويتعلق الامر بالمقاومة السياسية الفكرية ذات الاتجاهات والمرجعيات الفكرية المختلفة باختلاف مراحل الاحتلال، وتطور أساليب الإدارة الاستعمارية في الجزائر أواخر القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين، مستغلة ظروف الاستعدادات الفرنسية للمواجه العسكرية العالمية، وإعلان الحكومة الفرنسية لمشروع يقضي بفرض التجنيد على الشبان الجزائريين، بقيادة نخبة جزائرية مثقفة اهتمت بقضايا الجزائريين حيث قامت بإيصال مطالبهم الى إدارة الاحتلال، ومن بين هذه الشخصيات نذكر سي أمحمد بن رحال الندرومي (1858- 1928) الذي رافع طيلة فترة نضاله من أجل اصلاح أوضاع الجزائريين خاصة في مجال التعليم، محاربة الادماج والتجنيد الاجباري في الجيش الفرنسي.

من خلال هذه الإشكالية يمكن طرح التساؤلات التالية:

- كيف أثرت الأوضاع العامة للجزائر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على شخصية سي أمحمد بن رحال؟
- كيف كانت ردود فعل الجزائريين في منطقة ندرومة على الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي؟
- ماهي مظاهر المقاومة عن طريق الحوار التي تبناها سي أمحمد بن رحال؟

ولدراسة الموضوع تحتم علينا استعمال المنهج التاريخي، إذ سمح لنا بعرض الاحداث التاريخية وتسلسلها قصد تحليلها وتفسيرها

1- الأوضاع العامة لمدينة ندرومة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

1-1 الموقع الجغرافي وأصل التسمية

تبعد ندرومة عن مدينة تلمسان ب 60 كلم، وهي قريبة من الحدود المغربية ب 45 كلم، ويعود أصل تسميتها حسب الرواية العربية الى ددروما أي ضد روما لأنها تقع بعيدا عن الطرق الرومانية، وفي رواية ثانية أن اسمها مشتق من التعبير العربي أنظر الما (أنظر الى الماء) بسبب كثرة المياه في المنطقة ، حسب رواية أخرى، فكلمة ندرومة مشتق من الكلمة البربرية تادرومت أي الواد المتسع عند المنحدر، وهي الرواية الأقرب الى الواقع بسبب توافقها مع الوضع الطبوغرافي للمدينة من جهة ، ومن جهة أخرى أن إقليم طرارة[1] الذي تنتمي اليه ندرومة معظم أماكنه تحمل أسماء أمازيغية (Grandguillaume, 1971, p. 56)

وقد ورد اسم ندرومة في كتاب "المغرب في ذكر بلاد افريقيا " لأبي عُبيد البكري (المتوفي سنة 487هـ) حيث قال:" ...**وبين هذا الحصن (هُنين) ومدينة ندرومة الجبل المعروف بتاجرة والمسافة ما بين الحصن والمدينة ثلاثة عشر ميلا، ومدينة ندرومة في**

طرف جبل تاجرا وغربيها وشماليها بسايط طيبة، وبينها وبين البحر عشرة أميال، وساحلها وادي ماسين وهو نهر كثير الثمار وله مرسى مأمون ..." (البكري، 1857، صفحة 80)، وقد يكون مرسى ماسي هو خليج الغزوات(Nemours) أو سيدي يوشع نظرا لقربهما من المدينة، وبذلك تحول اسمها من فلاوسن الى ندرومة (Grandguillaume,1971, p56)، أما أبو عبد الله محمد بن محمد المعروف بالشريف الادريسي (1100-1165م)، فقد وصف لنا ندرومة في كتابه "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، حيث قال:"... **مدينة ندرومة، وهي مدينة كبيرة عامرة آهلة ذات سور وسوق، ولها مزارع كثيرة، ولها واد يجري في شرقيها، وعليه بساتين وجنات وعمارة وسقي كثير."** (الادريسي، 2002، صفحة 534)

إن الملاحظ من هذه النصوص التاريخية أنها تحدثت عن مدينة ندرومة من حيث الأهمية الاقتصادية، وما اشتملت عليه من سهول زراعية وبساتين مثمرة، ومن الناحية العمرانية، حيث يحيطها سور الذي يعد رمزا حضاريا ميز المدن الاسلامية العريقة، ووسيلة دفاعية هامة لحفظ النفس والعرض والمال من خلال الدفاع عن المدينة، وهي الغايات الكبرى التي اهتم بها الدين الإسلامي.

1- 2الاحتلال الفرنسي لمدينة ندرومة

دخلت قوات الاحتلال الى مدينة تلمسان في يوم 30 جانفي 1842 بقيادة الجنرال بيجو Bugeaud بعدما خلت من سكانها، إذ أمر خليفة الأمير عبد القادر، البوحميدي الولهاصي بإخلاء المدينة عشية احتلالها، واللجوء الى أحوازها في كل من سبدو، ندرومة، صبرة، وبني سوس، وعند ما دخلها الغزاة وجدوا بها مصهرة ومدافع، وقنابل وقذائف مدفعية أُعدت للدفاع (Roy, 1880, p. 253)، إلا أن انشغال الأمير بتوحيد كلمة القبائل التي بدأت تثور ضده من جهة، وهجومات قوات الاحتلال ما بين 1840- 1842 على مقاطعة وهران من جهة أخرى حالت دون الدفاع عن تلمسان.

وفي 08 مارس 1942 وصل الجنرال بيدو Bedeau على رأس قوة تتكون من 2500 عسكري مضافا اليها قوة من فرقة القوم Goumiers[2] المشكلة من فرسان مصطفى بن إسماعيل، وبعض فرسان بني عامر الى ندرومة[3]، وأمام مجلس جماعتها المتكون من أعيانها وعلى رأسهم حمزة بن رحال (والد أمحمد بن رحال) تعهد قائد القوات المحتلة أنه لن يسمح للفرنسيين بالإقامة على أراضيهم، وأنه جاء من أجل تسليمه بعض الرهائن من ندرومة، وآخرين من بني مساهل (Raynaud, 1854, p. 14)، ولعل سبب هذا التعهد الذي التزم به بيدو أمام أعيان ندرومة يعود الى اشتداد المقاومة وانتشارها في كامل إقليم طرارة، حيث إلتفت قبائل المنطقة كقبيلة سواحلية، مسيردة، ولهاصة، وباب تازة (قرية جبالة) حول الأمير عبد القادر ، وخلال عام 1843 وقعت عدة معارك ثانوية بين قوات المقاومة، وقوات بيدو في منطقة طرارة، خصوصا على ضفاف تافنا وسكاك بالقرب من بلدية الرمشي.

لم تتمكن قوات الاحتلال من إخضاع المنطقة لصالحها، كما أن لجوء الأمير الى المغرب في هذه الفترة رأت فيه السلطات الاستعمارية خطرا يهدد تواجدها في المنطقة الحدودية، لذا طلبت من السلطان عبدالرحمن بن هشام أن لا يؤيد الأمير، ولكي يرغم المغرب على ذلك، هاجم بيجو الحدود المغربية الجزائرية (معركة ايسلي في أوت 1844)، فرضخ السلطان لمطلب الفرنسيين وعاد الأمير الى الجزائر في السنة الموالية ليواصل مقاومته للاستعمار، فكانت معركة سيدي إبراهيم في سبتمبر 1845 (قرب الغزوات) هزم فيها جيش الاحتلال (بوعزيز، 1983، الصفحات 64-65)، وظلت الأوضاع على هذا الحال بين الأمير عبدالقادر والجيش الاستعماري الى غاية 23 ديسمبر 1847 حين أُجبر الأمير على إنهاء المقاومة (العربي، 1982، صفحة 320).

وعلى الرغم من نهاية مقاومة الأمير عبدالقادر، فإن قوات الاحتلال لم تُخضع منطقة طرارة لسلطتها، ويعود ذلك إلى الحوادث التي حصلت ضد بعض القوافل الفرنسية وحراس الحدود في منطقة بني سناس (تقع في شمال شرق المغرب الأقصى على الحدود

المغربية الجزائرية) في أوت 1859 بقيادة الشريف محمد بن عبدالله الذي قدم من المغرب الأقصى، حيث هاجم جماعة من الفرنسيين في مغنية، ومن المنطقة الحدودية امتد تأثير الثورة الى الغزوات والعريشة وغيرها، فأصبح الوضع خطيرا على الفرنسيين، لذلك جندوا قوات تعدادها حوالي خمسة عشر ألف جندي. وفي 11 نوفمبر انتهت حوادث بني سناسن بفرض الجيش الفرنسي ضريبة حربية على سكان المنطقة قدرها 200 فرنك عن كل بندقية، وانتزعوا منهم قطعان مواشيهم (بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنيين التاسع عشر والعشرين، 1996).

ونظرا لتخوف الفرنسيين من تأثير هذه الحوادث على تجدد المقاوم أسرعت السلطات الاستعمارية الى ابرام اتفاقيات مع الطرف المغربي لتأمين المنطقة الحدودية، والضغط على المغرب للحصول على امتيازات، وذلك من أجل فتح الأبواب أمام التجار المغاربة لتنشيط الحركة الاقتصادية للمنطقة قصد تشجيع الاستيطان الأوربي بها، خاصة إذا علمنا ان المبادلات التجارية بين المغرب وفرنسا ظلت محدودة وظرفية في النصف الأول من القرن التاسع عشر بسبب الهيمنة البريطانية عليها.

وإذا كانت المنطقة قد شهدت بداية الاستيطان الأوربي في عام 1845 خاصة في الغزوات، فإن ندرومة قد خلت من العنصر الأوربي على الأقل الى غاية نهاية العقد السادس من القرن التاسع عشر، وقد يعود هذا الوضع لعوامل جغرافية، فندرومة الم تكن تزخر بأرضي زراعية واسعة من شأنها جلب اهتمام المستوطنين، وما كان بحوزتها من مساحات صالحة للزراعة قد وُزع على الشكل التالي:

الجدول رقم (01): توزيع الأرضي في البلدية المختلطة ندرومة في عام 1866

نوع الملكية	المساحة
ملكية خاصة غير متنازع عليها	1524 هكتار- 85آر- 80 سنتيار
أملاك الدولة	150 هكتار -13 آر – 32 سنتيار
أراضي البلدية	462 هكتار – 36 آر- 37 سنتيار
ملكية الصالح العام	18 هكتار- 24 آر -00 سنتيار

المصدر: (Grandguillaume, 1971, p. 63)

من خلال الجدول يتضح أن اغلب أراضي ندرومة تعود لأصحابها المتمسكين بها، وهي ليست محل نزاع، هذا ما جعلها تخلو من المستوطنين الاوربيين خلال المراحل الأولى للاحتلال، فإلى غاية عام 1886 كان عدد سكانها الجزائريين يقدر ب 21988 نسمة، وعدد الفرنسيين 76 مستوطن، و305 يهودي (أغلبهم من يهود المدينة الذين تجنسوا بمقتضى مرسوم كريميو في عام 1870)، وبذلك فإن وجود المستوطنين بقي بصورة رمزية، كما أن ديناميكية الرأسمالية الاستعمارية كانت تسمح بتكوين شريحة من الملاك المتوسطين الجزائريين (جغلول، 1982، صفحة 64)، ضمت المزارعين، والحرفيين، والتجار، وتشير التقارير المنجزة من طرف إدارة الاحتلال في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أن حرفة النسيج شدَت اهتمام الندروميين، حيث بلغ عدد ورشاتها 148 ورشة، بالإضافة الى صناعة الفخار ب سبعة عشرة (17) ورشة، وبالمقابل فان نفس التقارير ذكرت ان اليهود في ندرومة لا يحوزون على أراضي زراعية، وأنهم ينشطون في بعض الخدامات، فمنهم تسعة (09) إسكافيين، وستة (06) متخصصين في صناعة الحلي، بالإضافة الى نجار واحد (Grandguillaume, 1971, p. 64).

ومهما كان من أمر، فإن السياسة الاستعمارية لم تسطع فك الروابط الاجتماعية والسياسية المحلية التي لعبت دور الإطار المرجعي للمجتمع الجزائري عامة، والتلمساني خاصة، وهو ما ذكره مصالي الحاج في مذكراته حين أشار الى مدى تمسك المجتمع التلمساني بمرجعيته الدينية، بقوله: " **... إن حياة سكان مدينة تلمسان، وأحوازها**

متأثرة الى درجة كبيرة بالمبادئ الإسلامية... ولا يكفي أن نؤدي الصلاة، أو ان نحفظ القرآن عن ظهر قلب، ولا أن نذهب الى الحج، فالعقيدة تضم كل مجلات الحياة...، ولم تكن المساجد أمكنة للعبادة فقط، بل كانت مراكز التربية والتعليم أيضا، كما كان للطرق الدينية دورا مهما في تلمسان، فقد كانت تجمع جزءا كبيرا من السكان..." (مصالي، 2007، الصفحات 12-13)، ويعود ذلك الى الثقافة العربية الإسلامية التي تشكل اللغة العربية إطارها الصحيح، وهي التي تعتبر ثقافة المجتمع الجزائري عبر المراحل التاريخية السابقة، فهي مقوم أساسي للشخصية الجزائرية.

وعلى هذا الأساس، فإن التعليم العربي في ندرومة قد تراجع في الأوساط العلمية والثقافية على مستويات عدة من زوايا، ومدارس قرآنية حرة نتيجة الواقع الاستعماري، لصالح نمط مدرسي جديد (مدارس فرنسية)، فخلال الستينات من القرن التاسع عشر ظهرت على صفحات جريدة المبشر كتابات بتوقيع رجال العلم الجزائريين كان بعضهم مدرسا، وبعضهم من الموظفين أمثال مصطفى بن السدات[4]يدعون قومهم للتعلم باللغة الفرنسية (سعدالله، 1998، صفحة 209) ، فمن المعروف تاريخيا أن المدرسة الفرنسية التي سعت الى اقناع الجزائريين بكل الوسائل بقوة وعظمة فرنسا لعبت دورا أساسيا في تكوين طبقة من المتعلمين تربت تربية فرنسية، وتأثرت بالحياة الغربية بعيدا عن واقعها الثقافي.

لقد أدت الحملة الدعائية التي شنتها جريدة المبشر بأقلام بعض الجزائريين لصالح المدرسة الفرنسية الرسمية[5]الى تغيير نظرة بعض الجزائريين لمسألةالتعليم الفرنسي، حيث بدأوا يسجلون أبناءهم في المدارس الفرنسية، ومع افتتاح أول مدرسة عربية- فرنسية في ندرومة في عام 1867 بموجب قرار صدر في يوم 28 جانفي 1865 التحق بها ثلاثين شابا مسلما ينتمون الى عائلات أرستقراطية، حيث كانوا يتعلمون القراءة،

والكتابة، والحساب باللغة الفرنسية، ومن بين رواد هذه المدرسة في سنواتها الأولى نذكر سي أمحمد بن رحال (جغلول، 1982، صفحة 65).

2- مولد ونشأة سي أمحمد برحال الندرومي

يعتبر أمحمد بن رحال المولود بندرومة في يوم 16 ماي 1858[6] من أبرز المفكرين الجزائريين في الفترة الممتدة من أواخر القرن التاسع عشر إلى بداية القرن العشرين، وهي الفترة التي بلغ فيها الاستعمار أوج قوته. ينتمي أمحمد بن رحال الى اسرة عريقة اشتهرت بتولي مناصب هامة كالقضاء والتعليم والامامة، فوالده حمزة بن رحال المعروف بغزارة علمه في مجال الفقه والتفسير، وكان أيضا أديبا، لقد عينه الأمير عبد القادر إمام الجامع الكبير، وقاضيا على ندرومة (سعدالله، 1998، صفحة 224)، ولما احتل الاستعمار الفرنسي المدينة، احتفظ حمزة برحال بمنصبه تحت قيادة القائد العسكري الذي منحه صلاحيات واسعة في تسيير شؤون السكان، ليتولى بعدذلك منصب آغا في سنة 1858، ولم تتوقف ترقية والد أمحمد بن رحال عند هذا الحد، بل قلده نابليون الثالث في سنة 1875 بوهران وسام الشرف من رتبة فارس، مما انعكس على الوضع الاجتماعي للعائلة، فبالإضافة الى أجرته على وظيفته، فقد تحصل على قطعة أرضية في نمور (الغزوات) (جغلول، 1982، الصفحات 66-67)، ولكن ذلك لم يمنعه من معارضة بعض قرارات الإدارة الاستعمارية مثل مرسوم 1863 الذي جعل الأرض تُنتزع من أصحابها باسم الملكية الفردية، وكذلك عدم تجاوبه مع قرارات النظام المدني الجديد، وبسبب موقفه المعارض لهذا النظام أُحيل حمزة بن رحال على التقاعد رسميا في سنة 1878 ليحل محله ابنه أمحمد بن رحال (جغلول، 1982، صفحة 67).

لقد أسهمت المكانة الاجتماعية والثقافية لعائلة بن رحال عامة، وحمزة بن رحال خاصة في تسهيل الطريق امام أمحمد لتنشئة صحيحة، حيث اهتم الوالد بابنه، فرباه تربية حديثة بتوفير له البيئة المثالية في اطار المحافظة على القيم العربية الإسلامية، لذا

تلقى الطفل أمحمد بن رحال المبادئ الأولى للتربية الدينية في المدرسة القرآنية، وبسبب السياسة التعليمية الفرنسية القائمة على الفرنسة كوسيلة وهدف المنتهجة في الجزائر خلال هذه الفترة رفض أغلب الجزائريين المدارس الفرنسية، ومنعوا أبناءهم من الالتحاق بها، لذا سعت إدارة الاحتلال الى ايجاد انتليجانسيا ذات ثقافة مزدوجة من خلال وضع العربية الى جانب الفرنسية، والمعلم الفرنسي الى جانب المعلم العربي المسلم، ودراسة المعارف الدينية تحت اشراف مفتي الى جانب العلوم الأخرى، وعندما فتحت المدرسة العربية الفرنسية أبوابها في ندرومة سنة 1865 ألحقه والده بها، فكان من الأوائل الذين انتسبوا لهذه المدرسة، وبعدها انتقل الشاب أمحمد بن رحال عام 1870 الى المدرسة العربية الفرنسية بالجزائر(Collège Impérial)(Grandguillaume, 1971, p. 66) ، وعلى إثر الغاء المدارس العربية الفرنسية بموجب قرار 23 أكتوبر 1871 نتيجة سقوط نظام نابليون الثالث، وقيام الجمهورية الفرنسية من جهة، وإقدام إدارة الاحتلال على معاقبة أبناء العائلات التي شاركت في ثورة المقراني عام 1871 ضد فرنسا من جهة أخرى، انتقل أمحمد بن رحال الى الثانوية الحضرية الرسمية بالجزائر lycée d'Alger الى غاية تخرجه منها عام 1874 (سعدالله، 1998، صفحة 224).

هذا وقد شهد للشاب محمد بن رحال بتفوقه الدراسي، وتمكنه من اللغة الفرنسية وثقافتها، وتظهر هذه المهارة من خلال كتابته وتدخلاته الشفهية، كما قام بنسج علاقات اجتماعية وشخصية مع رفاقه الفرنسيين، مما أدى الى إخفاء بواعث الانشقاق، غير ان هذا الاندماج الثقافي لم يرغم عليه القطيعة مع ثقافته العربية الإسلامية، فإلى جانب اتقانه للغة الفرنسية، كان يجيد اللغة العربية كتابة وتحدثا، فهو لم يتنازل في أية لحظة عن ثقافته الاصلية(جغلول،1982،ص 69)، وفي هذا السياق قال عنه المؤرخ الجزائري عبد الرحمن الجيلالي:"**... ويا للفزع والهول الذي يلحق الفرنسيين حينما كان يقف ابن رحال يخطب في المحافل السياسية، أو يكتب في الصحف والمجلات الدورية، ويأتي بحججه القاطعة وبراهينه الناصعة في نصرة الإسلام والعروبة والوطن، مستشهدا على ذلك بواقع التاريخ، وما قرره العلم وأثبته المنطق، فترى ابن رحال يومئذ**

كالسيل الجارف فلا يأتي في طريقه عارض إلا أخذه وجعله كالرميم..." (عبدالرحمن، 1983، صفحة 496)

وبعد عودته الى ندرومة تولى أول منصب في حياته المهنية، حيث عينه والده حمزة بن رحال في سنة 1878 قائدا لجماعة ندرومة خلفا له بعد انسحاب هذا الاخير بسبب معارضته لقوانين النظام الإداري -كما ذكرنا سابقا-، ولكن أمحمد استقال من المنصب في سنة 1884، حيث لاحظ انه لا يجدي نفعا عليه، ولا على الجزائريين ما دامت السلطة بيد المتصرف الإداري ومن وراءه إدارة الاحتلال (Grandguillaume, 1971, p. 66)وهكذا انطلق أمحمد بن رحال بفكره مدافعا على العربية والإسلام في وقت اعتقد فيه الفرنسيون ان امثاله لن يدافع إلا على الفرنسية والاندماج.

3-موقف سي أمحمد بن رحال من مسألة التجنيد الاجباري

3-1 جذور مسألة التجنيد الاجباري

إذا كانت فرنسا الاستعمارية قد حسمت الامر لصالحها في الجزائر مع نهاية القرن التاسع عشر عسكريا، فإنها لم تستطع تهدئة الأوضاع سياسيا، حيث اتخذ رد الفعل الجزائري عدة اشكال، فبالإضافة الى استمرار مقاومة الجزائريين رغم هزيمتهم، وهجراتهم الى الخارج، هناك شكل آخر لردود الفعل تمثل في الاحتجاج لدى إدارة الاحتلال خلال العقد الأول من القرن العشرين بواسطة العرائض التي حملت وجهات نظر الجزائريين ومطالبهم، وهذه الصفات نابعة من ثقافة أصحابها أكثر من أنها توجهات سياسية، وهم في الأصل علماء انطلقوا بأفكارهم للرد على المواقف الفرنسية تجاه الجزائريين في هذه الفترة، ولا سيما الخدمة العسكرية تحت الراية الفرنسية .

إن التفكير في استخدام الجزائريين من طرف الجيش الفرنسي مشروع استعماري قديم طالما كان محل نقاشات من طرف الأوساط الرسمية العسكرية والمدنية منذ منتصف القرن التاسع عشر، ففي عام 1845 ظهر مشروع الجنرال موليارMolliere، إلا

أن مثل هذه المشاريع [7] ظلت محل رفض من قبل إدارة الاحتلال، وذلك خوفا من رد فعل الجزائريين، وفي 21 أفريل 1866 صدر مرسوما يسمح للجزائريين بالانضمام إلى الجيش الفرنسي عن طريق الانخراط لمدة 4 سنوات بمنحة تقدر بـ 400 فرنك (ANOM3H63, p. 9H63).

وأثناء مناقشة قانون الخدمة العسكرية الصادر في 15 جويلية 1889 قدم كل من النائب جولييي Gaulier والنائب ميشلان Michelin اقتراحا بخصوص تطبيق الخدمة العسكرية على الجزائريين كشرط أساسي للإدماج والحصول على الحقوق السياسية، غير أن هذا الاقتراح لقي نفس مصير المشاريع السابقة، وفي سنة 1901 تعالت بعض الأصوات في الأوساط السياسية الفرنسية للمطالبة باستغلال الطاقات البشرية الجزائرية خدمة لمصالح الجيش الفرنسي، حيث طالب مقرر ميزانية الحرب ريبارتي M.Raiberti من وزير الحرب الجنرال ن. أندريNicolas André بتغليب مصلحة فرنسا في مسألة الخدمة العسكرية للجزائريين.

إن تسارع وتيرة الأحداث العالمية في مطلع القرن العشرين، وما نتج عنها من توتر العلاقات الدولية، فرضت على العسكريين والسياسيين التفكير الجدّي في مسألة التجنيد الإجباري للجزائريين، حتى أصبحت القضية تسيطر على حيز كبير من مناقشات الطبقة السياسية الفرنسية، وعلى هذا الأساس بدأ التفكير في المسألة، حيث تجلى ذلك في الدراسة التي أنجزها النقيب باسول Passols في سنة 1903 الذي اقترح ضرورة الزامية التجنيد للشبان الجزائريين الذين تتراوح أعمارهم من 18 سنة الى 40 سنة، كما اقترح صاحب الدراسة مدة ثلاث سنوات لإتمام الخدمة (Passols, 1903, p. 53).

ومع زيادة الاستعدادات الدولية لحرب أوربية وشيكة، قام ميسيمي Messimy مقرر الميزانية الحربية لسنة 1908 بطرح فكرة التجنيد الإجباري للجزائريين، فبعث برسالة إلى وزير الحرب موضحا فيها ضرورة الإسراع في تجنيد الشبان الجزائريين قصد تعويض

العجز العددي للجيش الفرنسي الناتج عن تراجع المواليد في فرنسا من جهة، ومن جهة أخرى تطبيق قانون 21 مارس 1905 المتعلق بتخفيض مدة الخدمة العسكرية إلى سنتين بدلا من خمس سنوات (ANOM3h56)، وعليه شكلت وزارة الحرب لجنة عسكرية بقيادة العقيد ريديي Redier في 17 أكتوبر 1907 التي وافقت على تطبيق الخدمة العسكرية الإلزامية على الشباب الجزائري (ANOM3H63)، وفي خضم الاستعداد للأحداث الاوربية القادمة قرر كليمنصو Clemenceau وزير الداخلية ورئيس الحكومة تطبيق التجنيد الاجباري بالموازاة مع أسلوب الانخراط في الجيش الفرنسي، وبمقتضى مرسوم 17جويلية 1908 تم إحصاء الجزائريين الذين بلغوا سن الثامن عشر من نفس السنة، وكان الغرض من ذلك جمع المعلومات الكافية بخصوص عدد الشبان الجزائريين، وتحضير الرأي العام الجزائري (الجزائري والأوربي) لتقبل فكرة الخدمة العسكرية الإجبارية التي تنوي الحكومة فرضها على الجزائريين(ANOM3H68) .

وبموجب المرسوم المؤرخ في 28 فبراير1911 تم استدعاء الشبان الجزائريين أمام لجان الفحص والانتقاء، لقد تزامن ذلك مع رغبة فرنسا في احتلال المغرب الأقصى مما جعل استراتيجية التجنيد القسري للجزائريين أمرا حتميا بالنسبة لقيادة الجيش الفرنس وبسبب هذه الضرورة الملحة، ولهذا اصدر وزير الحرب مرسوما في 31 جانفي1912 تضمن تعديل شروط الانخراط ونسبة المنح، إذ حدد بمقتضاه مدة الانخراط باثني عشرة سنة بالإضافة إلى أربع سنوات المعتادة في نظام الالتزام (Meynier،1981، p96)، وفي 03 فبراير صدر مرسوما آخر من نفس السنة، وبمقتضاه يتم تجنيد إضافي بواسطة الاستدعاء عن طريق القرعة، كما حدد مدة الخدمة العسكرية بثلاث سنوات مقابل منحة قدرها 250 فرنك (J.O.F.R,N°37,1912).

2-3 موقف سي أمحمد بن من مسألة التجنيد الاجباري

ما إن صدر القرار المتعلق بإحصاء الشبان الجزائريين البالغين سن الثامنة عشرة عاما في سنة 1908 حتى انتقل النقاش حول مسألة الخدمة العسكرية الإلزامية من فرنسا

الى الجزائر، الامر الذي دفع الطبقات الاجتماعية على مختلف مستوياتها الى استنكار ذلك الاجراء التعسفي عن طريق العرائض والعصيان والهجرة نحو الخارج، وهو ما أدى الى تشكيل وفود لتقديم الاحتجاجات الجزائرية الى إدارة الاحتلال، لقد تسببت عملية الإحصاء التي جرت في -السنة المذكورة أعلاه- في حدوث اضطرابات في الجزائر مثلما حدث في تلمسان (ANOM.3H56)، حيث أرسل أهل المنطقة عريضة احتجاجية أعلنوا فيها عزمهم على مغادرة الجزائر بدلا من البقاء والرضوخ لقرار التجنيد (Meynier,1981, p100)، وبالفعل قرر قايد منطقة أولاد الشولي (بلدية سبدو المختلطة) المدعو لخضر وهو من أعيان المنطقة في نهاية 1910سنة مغادرة البلاد ليتجه نحو الشام رفقة 27 شخصا بدون جواز سفر (Ageron, 1967, p. 1059).

وفي خضم هذه الظروف التي أصبحت تنذر بانفجار الوضع وجهة سي أمحمد بن رحال في 02 يناير 1908 مذكرة الى لجنة العقيد ريدي التي جاءت الى الجزائر للوقوف عند إمكانية تطبيق الخدمة العسكرية تضمنت مجموعة من الإجراءات لتهيئة أرضية تنفيذ المشروع كقبول الجزائريين في الوظائف الخاصة، حرية الصحافة، وتسهيل منح القروض (Ageron, les Algériens 1980, p. 1065)، غير أن تعنت ادرة الاحتلال دفع أهل تلمسان الى الهجرة الجماعية في سنة 1911 حين غادر المئات من الجزائريين البلاد نحو سوريا باعتبارها الوجهة المفضلة لهم في نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، ويعود ذلك الى استقرار الأمير عبدالقادر وعائلته بها، وكذلك لاتزال تابعة للدولة العثمانية رمز الخلافة الإسلامية، وعليه فقد غادر في البداية سبعة عشرة شابا منطقة تلمسان، ثم التحقت بهم مجموعات أخرى مكون من 20-50-80 الى وصل العدد الى 120 شخصا (طرشون، 2007، صفحة 152).

لقد شغلت هجرة اهل تلمسان الرأي العام، فأصبحت حديث الصحافة المحلية، حيث أوعزت جريدة بريد تلمسان Courrier De Tlemcen في 22 سبتمبر 1911 أسباب

الهجرة وفرار اعداد معتبر من عائلات أعيان المدينة الى قرار التجنيد الاجباري (Ageron, les Algériens …, 1980, p. 1088)، كما اهتمت جريدة صدى وهران Echo D'Oran بالموضوع، إذ خصصت له خمس مقالات مطولة [8] واصفة الهجرة بالوباء الذي انتشر في أوساط السكان، وسببه اقدام إدارة الاحتلال على تطبيق التجنيد الاجباري، وهكذا حاولت صحافة الاحتلال الربط بين مغادرة الجزائريين لبلدهم وبين تطبيق الخدمة العسكرية الإلزامية للضغط على السلطات الاستعمارية من اجل الغاء مشروع التجنيد حتى لا يتحصل الجزائريون على الحقوق السياسية.

تواصل احتجاج الجزائريين ضد مرسوم التجنيد الاجباري، ففي ندرومة تحول تجمع السكان الرافضين للقرار الى اضطرابات عندما حاول بعضهم في ليلة 20-21 ماي 1912 التخلص من قايد جبالة الذي حث الجزائريين على تجنيد أبناءهم في الجيش الفرنسي، وفي يوم الخميس 23 ماي 1912 (يوم السوق الأسبوعي) التقى اهل ندرومة بعدما انضمت إليهم المناطق المجاورة ليعلنوا الجهاد (Grandguillaume, 1971, p. 67) ، وبعد اجتماع الاعيان في المسجد الكبير بندرومة، أكد المجتمعون على رفضهم للخدمة العسكرية الاجبارية، وقاموا بتشكيل وفدا لإيصال أصواتهم الى الحكومة الفرنسية (جريدة الحق الوهراني،ع11،36-22جوان 1912)، وحسب ذات المصدر، فإن الوفد قد سافر يوم الخميس 27 جوان 1912 من العاصمة، وفي طريقه اليها زار ممثلو ندرومة برئاسة سي أمحمد بن رحال الذي أوكلت له باسم سكان المدينة رفض أو قبول الخدمة العسكرية، ووفقا للشريعة الإسلامية مقر جريدة الحق الوهراني.

وفي باريس تمثلت مهمة الوفد بطرح انشغالات الجزائريين تجاه تطبيق التجنيد الاجباري على أبنائهم، غير ان الوفد حمل معه أيضا كل الشكاوى والمظالم التي يعاني منها الجزائريون، ذلك ما عبر عنه رئيس الوفد لجريدة الوقت Journal Le temps التي سألته عن موقفه من الخدمة العسكرية عندما وصل الى باريس ، حيث قال:"... **قبل الخوض في الموضوع، كان من الواجب تحسين أحوال العساكر الوطنيين، ومن الواجب الاعتناء**

بعامة المواطنين بنشر التعليم، وفتح الوظائف، وتوسيع نطاق الانتخاب ..." (الحق الوهراني،ع41،21-27جويلية1912)، ويواصل سي أمحمد بن رحال حديثه مع جريدة الوقت بقوله:"... **بعثنا القوم (مواطنينا) للعاصمة باريزووظيفتنا السعي في تنفيذ أحد من المسائل الثلاث التي لا مسلك في غيرها في الأحوال الوقتية: أولا اما نسف قانون الثالث فيفري السنوي (مرسوم 03 فبراير 1912)، أو إعطاء المعاوضات (التعويضات) للحمل الثقيل الذي أُلزمنا باحتماله، أو تسريح باب الهجرة ..."** (الحق الوهراني،ع41،21-27جويلية1912).

ومعروف أن الوفد إستُقبل في باريس من طرف النائب عن وهران في الجمعية الوطنية الفرنسية ألبان روزي Albin Roset ، وميسمي، ثم من قبل رئيس المجلس بوانكاري Poincaré، وكذلك من رئيس الجمهورية أرمان فاليير Armand Fallières، وقد طلب منه اقناع أعضاء الوفد بقبول مضمون قرار التجنيد، مع مواصلة المطالبة بالحقوق السياسية، وعندما رأى سي أمحمد بن رحال ان القرار سيطبق لا محاله، وان بوادر الحرب الاوربية أصبحت تلوح في الأفق، أدرك بواقعية سياسية أنه لا مناص من تطبيق الجندية، وجدناه يؤكد على مسألتين وهما تطبق إصلاحات عميقة لصالح الجزائريين، او فتح باب الهجرة اماهم (إمهديد، 2006، صفحة 185).

تزامن تواجد وفد مدينة ندرومة في باريس مع تواجد وفد ابن التهامي الذي سبقه الى العاصمة الفرنسية، حيث قدم عريضة موسعة تعبر عن مطالب الجزائريين التي وافق عليها وفد سي أمحمد بن رحال، ومن أهم ما ورد فيها نذكر ما يلي (الحق الوهراني، ع43،03-10أوت 1912):

- الغاء قانون الاندجينا والقوانين الخاصة
- تغيير النظام المتعلق بالغابات
- اصلاح الضرائب العربية، وتوزيع مردودها بالعدل

- اصلاح النظام الانتخابي بالنسبة "للأهالي"
- نشر التعليم الابتدائي، وتحسين أوضاع المعلمين "الأهالي"
- منح ضمانات حصينة للفلاحين ضد أي نزع الأراضي.

ومن خلال هذه المواقف يظهر لنا فكر سي أمحمد بن رحال الذي ينتمي الى الفكر الإصلاحي الرافض لفكرة ادماج الجزائريين في المجتمع الفرنسي، حيث قال فيه جول فيري Jules Ferry:" **انه وجه معتبر ومستقل أيضا، وهو خصم شرس لكل دمج، ورغم أنه تكون في مدرسة فرنسية، إلا أنه مدافع بليغ عن العربية والإسلام"** (جغلول، 1982، صفحة 63)، ولهذا يعد معارضا لكل الوسائل المؤدية الى سياسة الادماج، مما جعله يرفض التجنيد الاجباري في البداية، وعندما أصبح أمرا محتوما طالب بتطبيق إصلاحات عميقة لصالح الجزائريين.

خاتمة

يعتبر أمحمد بن رحال من أبرز عناصر هذا الجيل الذي أراد الفرنسيون ان يجعلوه منهم وسيطا بينهم وبين الجزائريين، فجمع بين اللغتين، وتوظف عندهم، ولكنه لم يتخل عن اصوله وتراثه الديني والثقافي، كان سي أمحمد بن رحال صوت الجزائر العميقة، وصوت التاريخ.

كان يمكن أن يذوب في الثقافة الفرنسية، وينبهر بالنظم والمخترعات الفرنسية، ولكن حصانته العربية والإسلامية، وارتباطه بالجذور جعلته يدعو الى التطور، وليس الى الاندماج، ويواجه الفرنسيين.

تميزت حياة امحمد بن رحال بتعدد الجوانب، فهو رجل دين وعلم، وهو مؤلف وباحث واديب، قايد ونائب مالي.

لقد تبنى أمحمد بن رحال المقاومة عن طريق الحوار، حيث قاد المقاومة انطلاقا من موقفين، فمن جهة اعتمد على أسلوب المحاور الشخصي للاستعمار في بداية الامر، ومن جهة أخرى كممثل سياسي للنخبة الجزائرية المحلية.

الهوامش

1- نسبة الى جبال الطرارة التي تعد امتدادا للسلسلة الجبلية للأطلس التلي المطلة على البحر الأبيض المتوسط، وتقع منطقة طرارة في أقصى الشمال الغربي للجزائر، كانت تضم في عام 1839 حوالي 200 قرية ليشكلوا قبيلة ب 4000 منزل منتشرة في جبال طرارة، وهي تابعة لإقليم تلمسان (ينظر : مراد مولاي الحاج، 2008، ص 03)

2-هي فرقة عسكرية مكونة من الفرنسان الأهالي، تشكلت بموجب التعليمتين الحكوميتين، الأولى في أكتوبر 1832، والثانية في 17 ديسمبر 1841، يقودها شيخ القبيلة الذي يخضع لسلطة ضابط فرنسي، مهمتها تفتيش المناطق التي تكثر بها الثورات والانتفاضات.

3- بقيت ندرومة تحت الحكم العسكري، وتابعة للمكتب العربي بمغنية الى غاية عام 1870، وفي 09 سبتمبر 1880 صدر قرار تحولت بموجبه الى بلدية مختلطة تحت سلطة المتصرف بغولي غوني Berelle Administrateur René. (ينظر :Grandguillaume Gilbert,1971., p65.

4- يقول عنه المؤرخ أبو القاسم سعدالله:" بدأ يظهر اسم مصطفى بن السدات على جريدة المبشر إبتداءا من عام 1864، كان مدرسا بالمدرسة الشرعية - الفرنسية التي أسسها الفرنسيون في قسنطينة في عام 1850. (ينظر: أبو القاسم سعدالله، 1998، ص 210.).

5- ذكر أحدهم أن اللغة الفرنسية ستكون هي جواز السفر الوحيد الى الوظائف، وأن الذي لا يعرفها لا مكان له في تولي الوظائف، وهي التي تمنح لصاحبها العز (ينظر: أبو القاسم سعدالله، 1998، ص 212.).

6- اختلف المؤرخون حول تاريخ ميلاد أمحمد بن رحال، فأبو القاسم سعدالله ذكر في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي ج 6 أنه من مواليد سنة 1857، وهو نفس التاريخ الذي ذهب اليه عبد القادر جغلول، وحسب غران-غيوم جلبار أن امحمد برحال ولد في سنة 1858، وهو ما ذكرته شهادة عائلته حسب مداخلة صبرينة الواعر خلال فعاليات الملتقى الدولي حول تاريخ وحضارة تلمسان ونواحيها المنعقد 20-22 فيفري 2011.

7- مشروع الجنرال إستارازي Esterhazy في سنة 1857 - مشروع الجنرال مونتابا Montauben في سنة 1859، ومشروع الجنرال مارتامبري ينظر: ANOM, Série H, Boite9h63, Premières Propositions D'établissement Du Service Militaire Des Indigènes.

8-تناولت جريدة صدى وهران الموضوع في أعدادها الصادرة من يوم 14 الى غاية 18 أكتوبر 1911.

قائمة المراجع

1. أبوعبيد البكري، (1857)، المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب، مطبعة الولاية العامة، الجزائر.
2. الشريف الادريسي، (2002)، نزهة المشتاق في إخراق الآفاق، المجلد الأول، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
3. مصالي الحاج، (2007)، مذكرات مصالي الحاج 1898-1938 (تر: محمد المعراجي)، منشورات الوكالة الوطنية للنشر والاشهار ANEP، الجزائر.
4. الجيلالي، عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، ج04، ط06، دار الثقافة، بيروت، 1983
5. العربي، إسماعيل، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبدالقادر، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982
6. بوعزيز، يحي، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1983.
7. بوعزيز، يحيى، ثورات الجزائر في القرنيين التاسع عشر والعشرين، ج1، ط2، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والاشهار، الجزائر، 1996.
8. جغلول، عبد القادر، تاريخ الجزائر الحديث – دراسة سوسيولوجية- (تر فيصل عباس)، ط2، دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1982،
9. مهديد، إبراهيم، القطاع الوهراني ما بين 1850- 1919 (دراسة حول المجتمع الجزائري حول الثقافة والهوية الوطنية)، منشورات دار الاديب، وهران، 2006
10. طرشون، نادية، (وآخرون)، الهجرة نحو المشرق العربي نحو الاحتلال، (سلسلة المشاريع الوطنية للبحث)، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007.
11. سعدالله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 06، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.
12. مراد مولاي الحاج، منطقة طرارة من منظور الدراسات الكولونيالية، إنسانيات المجلة الجزائرية في الانثروبولوجية والعلوم الاجتماعية، CRASC، العدد 39-40، 2008، ص-ص 09-01
13. جريدة الحق الوهراني ع36 من 11-22 جوان 1912
14. جريدة الحق الوهراني ع 41 21-27 جويلية 1912
15. جريدة الحق الوهراني ع 43 من 03-10 أوت 1912.
16. A.N.O.M. Série H, Boite 3H56 Lettre de Messimy, A Monsieur le ministre de la Guerre
17. A.N.O.M., Série H, Boite 3h 63, Les Origines De La Questions.

18. A.N.O.M, Série H, Boite 3h68, A/S De L'application Des Nouveaux Décret Concernant Le Recrutement Indigènes.
19. A.N.O.M. Série H. boite n°3h56. Le capitaine Chardennet en mission en Algérie
20. J.O.R.F, N°37, 07/02/1912
21. Capitaine, (Passols), l'Algérie Et L'assimilation Des Indigènes Musulmans, Henrie Charles Lavauzelle Editeur Militaire, Paris 1903, P 53.
22. E. Pellissier De Raynaud, Annales Algériennes, T03, Librairie Militaire, Paris, Octobre 1854.
23. Just-Jean-Etienne. Roy, Histoire De L'Algérie Depuis Les Temps Les Plus Anciens Jusqu'à Nos Jours, Alfred Mane Et Fils, Tours, 1880.
24. Ageron, Charles Robert, les Algériens Musulmans et la France 1871-1919, Edition Bouchene, paris, 1980.
25. Mynier, Gilbert, L'Algérie Révélée La Guerre De 1914-1918 Et Le Premier Quart Du XX^{e} Siècle, Librairie Droz Genève 1981.
26. Charles Robert Ageron,, Emigration Des Musulmans Algériens Et L'exode De Tlemcen 1830-1911, Annales Histoire, Science Sociales, Année 1967, V22, N05, Pp1047.1066.
27. Grandguillaume Gilbert. Une médina de l'Ouest algérien : Nédroma. In : Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n°10, 1971. Pp55-80.